قصة مثل

- ٧ -

آخر خدمة الغز

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ شارع جواد حسني
ص . ب ١٣٠ القاهرة - ت : ٣٩٢٥٥٢٣

١

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح آ خ آخر خدمة الغز / بقلم محمد ماهر قابيل.- القاهرة : دار الفكر
العربى ؛ إيداع ١٩٩١.
١٦ ص : مص ؛ ٢٤ سم.- ([سلسلة] قصة مثل ؛ ٧)
تدمك : ٧ - ٠٥٠٥ - ١٠ - ٩٧٧.
١- الأمثال العامية العربية. أ- العنـوان. ب - السلسلة.

كانت بلادنا دائما مطمع الغزاة. فهى تقع موقعا مهما من العالم، يمتد من المحيط الهندى إلى المحيط الأطلسى. وهى مهد الأديان والحضارات. فبها الأماكن المقدسة، والآثار التاريخية، والأنهار العظيمة، والأراضى الخصبة، والثروات الضخمة.

وبقدر ما كانت بلادنا مطمع الغزاة كانت مقبرتهم أيضا. فتاريخنا يحفل بأمجاد الجهاد والاستشهاد. وتراثنا يحفظ البطولات، ويختصر كلمة «الغزاة» إلى «الغز» فقط كأنه يستخف بهم. ومثلما رفعت أمتنا أبطالها، رفعهم حتى خصومهم، وشهدوا لهم. ومثلما احتقرت أمتنا الخونة، احتقرهم الأعداء الذين تعاونوا معهم.

هذا ما خطر ببال فارس، وهو يتحدث إلى الأمير إبان احتدام إحدى الغزوات الأجنبية لبلادنا قائلا:

- إن مسالمة هؤلاء الجناة تيسر عليهم تحقيق أغراضهم الطامعة.

قال الأمير متلطفا:

- إننى أوثر سلامتنا يافارس.

قال فارس مقطبا:

- حين يكون الخطر داهما على الأمة فإن المرء لا يفكر فى النجاة بنفسه. إن التخلى لن ينقذنا.. ربما تأجل دورنا سنوات حتى يفرغ الأعداء من أشقائنا ثم يستديرون إلينا فيفعلون بنا ما فعلوا بإخوتنا.

قال الأمير الذى كان قد رفع إلى إمارة لا يستحقها فى ظروف مريبة:

- ألا ترى مدى بيعة الناس لى على ذلك؟ ألا تشاهد طاعة العسكر لى؟

قال فارس، وهو يعلم نفاق الأمير للناس وللعسكر، وإظهاره لهم غير ما يبطن:

- إن الناس أيها الأمير يتبعون ولاتهم تبعية المصدق للصدق، أو المخدوع بالكذب، أو

المضطر الذى لا حيلة له. وإن صاحب الشرطة يأتيك بأخبارهم.. وهو بعد رجلك، وأسير نعمتك التى أنعمت، وفضلك الذى أسبغت، وإنه بذلك لا ينقل إليك ما يسوؤك خوفا أو حياء أو طمعا . فربما حجب عنك، وربما اصطنع لك.. وإنك فى حل منه مادام على عهده ذاك.



أوشك الغضب أن يعصف بعقل الأمير. وكان قد كشف القناع عن وجهه القبيح بعد جولة قتال واحدة. فقال:

– لقد قاتلت يا فارس.. ألم تكن على ميمنة الجيش يوم التقى الجمعان؟ أى كذب؟ وأية حيلة؟ ومالك تنفس على صاحب الشرطة منزلته منى، فتغمزه فى حضرتى بما يغض من قدره.

ثم أردف فى عنف:

– ومن قدرى أيضا..

وحبس لسانه عن أن يستطرد فى لوم فارس لما يعلمه من قوته وشجاعته. فعاد يرقق صوته قائلا:

– ولولا يقينى بإخلاصك لكان لى فى شطط شأن أى شأن.

قال فارس، وهو يدرك ما يكـ ـف خلع هذا الفاجر من مصاعب، فيتشبث بأمل واه فى رده عن هاوية الغى:

– أصلح الله الأمير. أما القتال فـ ـم.. لقد أبلينا فى أيامه بلاء حسنا.

ثم أمسك هنيهة مسترجعا ما علمه عن اتفاق الأمير سرا مع حلفاء الغزاة على أن تكون موقعة واحدة لا تطول، ولا تنفسح، تهيئ له من أمره طاقة على إنفاذ خيانته وراءها. ثم قال:

– أما الغيرة من صاحب الشرطة، فإن من يحمل رأسه على يده لا يبيع آخرته بدنياه.. ولا تغرنه الحياة فيتهالك على عروضها الزائلة، وهو بينها غريب عابر سبيل.. وأما إخلاصى أيها الأمير فحسبى ما علم الله والمؤمنون منه.

واكتسى وجهه سحابة من حزن روع الأمير مرآها لما يعلمه من ثبات فارس على الحق، واستبساله دونه، فقال مراوغا:

– تعب الناس يا فارس .. وليس بوسعى وقد قمت على أمرهم أن أشق عليهم.
قال فارس، وهو يذكر ما يرتع فيه نساء الأمير وغلمانه ومماليكه وحاشيته وعشيرته وأصفياؤه من بذخ وسفه جاوز كل حد:

– إننا يامولاى لو خرجنا فى قافلة من قوافل التجارة فنال منا الطريق، وبعدت الغاية لعدنا غير مذمومين.. ولكننا خرجنا نحمى بيضة الدين، ونصون الأرض والعرض، ونحفظ على أمتنادولتها ورايتها وعزتها.. وليس لمن يخرج فى سبيل الله خيار مما يركن إليه طلاب الدنايا.

ثم تلا قول الحق جلت قدرته، وعلت مشيئته:

«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره. والله لا يهدى القوم الفاسقين».

أظهر الأمير الورع قائلا:

– صدق الله العظيم. وقال سبحانه:

«وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله».

قال فارس:

– إن الناس لا يبالون لو غلت بهم القدور فى الحق إذا رأوا من ولاة أمورهم الأسوة. وإنهم ليحتملون الجوع والنصب إذا كتب عليهم القتال كى لا يبيتوا أذلة فى ديارهم يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون. لهم علينا ألا ندعوهم إلى ذلك ونحن نتقلب فى الذهب والحرير. فإننا إن أكلنا طعامهم لا نزيد، ولبسنا لباسهم لا نحيد، وركبنا مراكبهم لا نستعلى، وسكنا مساكنهم لا نستكبر. ثم دعوناهم إلى زحف نتقدمهم فيه، ما نكصوا ولا ولوا الأدبار أبدا.

وسكت لحظة. ثم قذف بها فى وجه الأمير غير هياب ولا وجل:

– إن العرب كانوا أهل جاهلية مستضعفين. فلما بعث الله إليهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، خرجوا من الضلال إلى الهدى، فقويت شوكتهم، وسادت دولتهم.

إن الناس أيها الأمير بخير ماساسهم خيارهم.

نالت العبارة من الأمير. لكنه بقى على طبعه من المداهنة قائلا:

– مازدت يا فارس على أن امتثلت لأمر الله.. فجنحت إلى السلم متوكلا عليه.

بدا رياء الأمير جليا. فقال فارس، وهو يعلم أن القرآن حمال أوجه:

– إننا لو جعلنا القرآن خزانة نلبس منها لكل حالة لبوسها لا سترحنا به– والعياذ بالله– راحة الباطل. لقد أتت «إن» للاستبعاد.. ثم «جنحوا» هم أولا لا نحن.

ومتى جنح هؤلاء الغزاة إلى سلم، وهم شراذم أتت من كل شط لتجتمع على النهب والغصب لا تعيش دونه؟

وساد صمت قصير قطعه فارس بقوله:

– ثم إن الخطاب فى الآية لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الأمير مخاتلا:

– وأنا على نهجه. أحذو حذوه.

أخفى فارس نظرة ازدراء فى عينيه لهذا الدعى، وقال:

– ما كان صلح الحديبية عهدا على الرسول يستبيح به المشركون ديار الذين آمنوا، ويفرقون شملهم، ويذهبون ريحهم، ويأخذون ميثاقهم ألا تقوم لجيشهم قائمة يعود بها إلى حرب الكفر.

ورأى فارس اضطراب الأمير، فتابع قائلا:

– إنما هم فقهاؤك يامولاى.. تصلهم بالصلات، وتجرى عليهم الرواتب، وتهبهم الدور والضياع العامرة، وتخلع عليهم الخلع السنية. ثم تستفتيهم فيفتونك بما تحب وترضى.

زأر الأمير لاعنا أبا فارس، وأمر به فأخرج من مجلسه. ثم عزله من إمارة الميمنة.. وما حاجته إلى مثل فارس، وقد عقد العزم على ألا يقاتل أبدا؟

* * *

وخرج الأمير فى كوكبة من خلصائه إلى معسكر الأعداء طالبا الصلح. وكان قد بيت لذلك معهم متآمرا بليل. ثم أطلق منشديه يمجدون فعلته، وعقد مع الغزاة عقدا ظالما، وتبجح بما كان فى البدء قد أسره متلصصا. فجاء بالأعداء إلى الديار يعيثون فى ربوعها فسادا. حتى ضج العباد منه. أما الفرنجة فقد استملحوا ماله، وامتد حوا أمثاله، وأوقفوا رجالهم ببابه، وأغدقوا على آله وأذنابه.

وجاءه قاضى القضاة، وشاه بندر التجار. فأكرم وفادتهما، وأفسح لهما مجلسا إلى جواره. لكن قاضى القضاة خاطبه فى وقار قائلا:

– أعز الله الأمير. مابالنا رضينا الدنية من أمرنا، ونحن بفضل من الله ونعمة المكثرون عددا، الزائدون مددا؟

ارتج على الأمير، وكاد يفقد صوابه، ويخرج عن طوره فيكون له مع الرجل شأن مثلما كان له مع فارس، لولا ما كانت لقاضى القضاة من هيبة ومنزلة. فقال الأمير متملقا:

– إن قاضى القضاة نبراسنا الذى نهتدى بهديه. ولا يخفى على فطنته أن لا طاقة لنا بعدة هؤلاء القوم وعتادهم.

قال القاضى مترفقا:

– إن العدة والعتاد يجلبان أو يصنعان.. فلا يتعلل المرء بهما عن صون ما يخلق به أن يصان. وإنى لأربأ بالمؤمن أن يقعده الخور عن النهوض إلى خصم يريد بأهله شرا، وإن جاءه بحرا وبرا.

ثم أردف قائلا:

– ذلك يامولاى شأن الجبان المهان.



عقد الأمير العزم على حبس القاضى.. لكنه رأى أن يهيئ لذلك سببا يخرج به على العامة، فقال:

- إن القطيعة ياقاضى القضاة تورث البغضاء.. فإن نزعنا السبب ولى المسبب من تلقائه.. فلم يبق من الخصومة إلا الهشيم هنا أو هناك. فتنحل العقدة، وتنكشف الغمة، ويكون بلوغ الأرب، وصلاح أحوال العرب.

ثم أردف مباهيا:

– وإنى قد وثقت حبال الود مع ملكهم وكبرائهم. ولى أمل أن تسلم المحبة بيننا إذ انعقدت أواصرها إلى إصلاح ذات البين، وذر الرماد فى العين، فيستحون مما سلبوا فيردونه، ويعفون عما طمعوا فلا يبتغونه. فيزول منا سوء الظن بهم، ويألفون فينا ما يجمل بنا. ويكون من وراء ذلك كله اجتماع رؤوسهم المدبرة إلى سهولنا العامرة. فيعم على الكافة خير أى خير.

وساد الصمت لحظات. وثبت الجمع كأن على رؤوسهم الطير حتى قطع الأمير السكون بقوله فى غير حياء:

– إنى لألقاهم معانقا، وأطعم طعامهم، وأطعمهم طعامنا، وأحييهم بتحيتهم أو بأحسن منها، وأذكرهم بما يلين قلب الصخر من مستعطف الكلم. فهل وراء ذلك من ميسر؟

قال قاضى القضاة فى تؤدة وهوادة:

– الحمد لله الذى جعل العزة لرسوله وللمؤمنين، والصلاة والسلام على نبيه الصادق الأمين. أما بعد فإن القطيعة أيها الأمير إن كانت فى رفث أو فسوق أو حاجة من حوائج الدنيا فأورثت البغضاء لم نمكث عليها. ولكن هؤلاء القوم استباحوا حرماتنا، وأذلوا أعزتنا، وهتكوا أعراضنا، وبقروا بطون الحوامل من نسائنا فأخرجوا الأجنة حية يعبثون بها. لم تأخذهم بشيب شيوخنا، ولا بضعف أطفالنا رحمة ولاذمة.. لا يقنعون بالباع بعد الباع، والذراع تلو الذراع حتى تتم لهم دولتهم الغاصبة من النهر إلى النهر. داسوا مساجدنا، ونهبوا أموالنا، وحطموا بيوتنا، وما فتئوا يخرجون علينا كل حين فيصرعون ويجرحون ويأسرون ويغنمون لا يردعهم عن النيل منا رادع من شرع أو ضمير. وهم على عهدهم مقيمون لا يغيرهم طلوع الشمس، ولا غروبها.. ألم تر إلى غارتهم على مضارب إخوة لنا عشية أن أخذت ميثاقهم مسلما؟ أتغشانا غاشية الأثرة الحمقاء حتى نفيق منها على سنابك خيلهم، وقد فرغوا من إخوتنا فاستداروا إلينا؟

وتهدج صوت قاضى القضاة، وهو يتابع قائلا:

– لا والله لم ننفر على الهشيم، وما كنا فاطين. وإنها لغمة أنزلها بنا تفرقنا عن

حقنا، وإسرافنا فى أمرنا، وقعودنا عن جهادنا. فإن أخذنا أنفسنا بالجمع والقصد والشحذ صلحت أحوالنا. وإلا فإنها الآزفة الطامة. أما أنهم ينزلون طواعية عما سلبوا فذلك مما لم يجبل عليه أمثالهم إلا ابتغاء أكثر منه. وأما عفتهم عما طمعوا فقد جهروا بألا سبيل لهم إلى النكوص عنه وإن طال عليهم الزمن. وأما ظننا بهم فليس من الإثم فى شئ.. إن نظن بهم إلا عين الحق، وأما أن يألفونا فحسبنا منهم ما شهدنا من آيات فحشهم، وزعاف سمومهم. ما انفكوا يبثونها سرا وعلانية حتى عافهم صغيرنا وكبيرنا، ولم يبق على الود لهم إلا ...

وأمسك القاضى حكمة لا خوفا، وقد أصابت سهامه المقتل.

فقال الأمير متثاقلا:

– إلا من ياقاضى القضاة؟

قال القاضى فى كياسة:

– إلا الأقلون عددا أيها الأمير.. إن الألفة على غير الصفاء باب من أبواب المقت تضاعفه ولا تذهب به. أما سهولنا العامرة فلم تعدم منا العقول القادرة. ولو أنصفنا شبابنا لأتوا بما يعجز ويبهر. وأما الخير ياأمير المؤمنين ففينا وفى أمتنا إلى يوم القيامة، وإنه ليعم بالعدل لا بالإدبار. أما طيب الكلم فمتى فعل فى فاسق فعله؟

قال الأمير:

– أنت تعلم ما أنفقنا فى تجييش الجيوش، وما أورثنا من فقر ومسغبة.

وإنى لأرجو أن نغاث بالسلم غوثا يطيب به العيش. ولا ريب أن شاه بندر التجار حليفى على ذلك. فإن لنا بصلحنا معهم أن نبيع لهم، ونشترى منهم. فيعظم الربح، وتربو الفائدة.

نطق شاه بندر التجار للمرة الأولى قائلا:

– أصلح الله الأمير. لم تكن نفقة الجيش مناط ما ابتلينا به من حاجة ودين إلا بغيرها مما أفرطنا فى إتيانه. ولا يخفى على الأمير أن نفقة الجيش زادت بعد الصلح، ولم تنقص. ثم إننا اقتتلنا مع إخوة لنا بوشايات خسيسة، وقاتلنا فى سبيل حلفاء لأعدائنا. وقد منّى

الأمير الناس بعام يغاثون فيه فلم يروا إلا الجدب والقحط والغلاء حتى أصبحت الشاة العجفاء بسبعين دينارا .

ثم استطرد شاه بندر التجار مرفوع الرأس، شاخص البصر:

– إنما ذهب الغوث يامولاى إلى القصور، وألقى عبء سداد الدين على الخيام والقبور .

وأدرك الأمير أن الرجل يعرض بما آل إليه حال شطر من أهل حاضرته اضطروا لسكنى القبور مع الأموات . فقال :

– لقد حاربنا من أجل أعراب آثرناهم على أنفسنا، وبنا مابنا من خصاصة . وقد آن أوان الرجوع عن الخطل . فلتكن حربنا الأخيرة آخر الحروب . ولنعل حضارتنا على بداوتهم، وندعهم وشأنهم مع عدوهم . إن شاءوا قاتلوه منفردين، وإن نكصوا أتوه مثلنا مسلمين . أما القصور فإنك تدرى مايجرى به السفه فى قصورهم . فإنهم مابرحوا فى شمل مشتت تمزقه الأثرة أى ممزق، وينال منه الحرص على السلطان كل منال، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويبذرون على نسائهم وملذاتهم كأنهم للشياطين إخوان .

قال شاه بندر التجار، وهو ينظر إلى الأمير تارة، وإلى قاضى القضاة تارة أخرى :

– إن المؤمن ياأمير المؤمنين لايتعلل عن ذنبه بإثم غيره، ولو كان ذا قربى . ولكن القسط فى أمرنا أقرب للتقوى . والعرب أهلنا وأولو أرحامنا . . نحن منهم، وهم منا . لهم علينا النصح إن حادوا، والنصر إن دعوا، وإننا منهم بمنزلة القلب من الجسد : ففى صلاحنا صلاحهم، وفى غينا غيهم . وإنما حاربنا لنحمى حمانا الواحد الذى لاينقسم . فإن نحن استكبرنا بحضارتنا على بداوتهم، فتحنا باب الظفر علينا متفرقين أمام عدونا . إنها نازلة على من يركب البحر منا، ومن يلوذ بالبر . فأين – ياأمير المؤمنين – منها المفر ؟

قال الأمير بصوت مرتفع :

– أى عاقل لايلبى داعى الأمن والأمان ؟

ردد قاضى القضاة الآية الكريمة "إنما يخشى الله من عباده العلماء" . فلم ينتبه الأمير إلى مقصد القاضى، وقال :

– إن الله أمركم بطاعة أولى الأمر . والله لا أرحم الخوارج، ولاتأخذنى فيمن يلغون بألسنة حداد شفقة . لقد ناصبناهم العداء ثلاثين حجة . فماذا جنينا إلا الخسران المبين ؟

قال قاضى القضاة فى حزم :

– إن ديننا يردنا إن التبست علينا المسالك إلى جادة الصواب . على ألا نأخذ منه بالهوى وندع . ولكن فقهاءنا ألحقوا بالدواوين، وأئمتنا يصدعون بما يأمر به مورد رزقهم، ويعرضون عما سواه . وإننا – والله – ماابتغينا شق عصا الطاعة، ولا فرقة الجماعة . إن نريد إلا الإصلاح مااستطعنا . فما أقيم فينا كتاب الله أطعنا .

احتد الأمير قائلا :

– أتكفرنى ياقاضى القضاة ؟

قال القاضى فى كياسته الفائقة :

– معاذ الله أن أرجم بالغيب أو أطلع على السرائر . إنما أنا عبد من عباد الله يقرأ كتاب الله . وأمر المؤمنين أيها الأمير شورى بينهم .

ظن الأمير أن قاضى القضاة يشير إلى وثبة العسكر على دار الحكم، واغتصابهم لها . تلك الوثبة التى أتت بالأمير ذاته إلى ولاية لم يبايعه العوام عليها، مما جعل من حديث الشورى والحال كذلك محض ذم للأمير، وتعريض به، ورياء للنحل والمذاهب التى تفرقت عليها الأمة . فقال :

– غدا أخرج على الناس فأخطب فيهم خطبة الجمعة، وأرى مايكون من أمرى وأمرهم. فما شاء سوادهم أنفذته، لاأبالى فيه سخف الأراذل من أعيانهم .

قال قاضى القضاة فى حمية :

– يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات . لابأس أيها الأمير . ولكنك إن خطبت فى الناس بما أردت فكيف يأتيك منهم نبأ وهم إلى ماتقول منصتون ؟

قال الأمير فى جهالة :

– أقرأ صفحات وجوههم .

قال القاضي ، وقد قنط من هذا المارق :

– يفعل الله مايشاء .

ثم تلا قوله تعالى :

"والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون" .

* * *

وفي يوم الجمعة، ارتقى الأمير سلم المنبر وثبا، فسلم وسمى، وحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعه وولاه إلى يوم الدين . ثم قال :

– أما بعد، فإنني قد نظرت فيما آل إليه أمرنا، وأمر الذين ألحقت بنا عداوتهم، فوجدتنا دونهم، ورأيت فيهم من الحدب علينا مارجوت معه أن نصيب مما فضلهم الله به . فذهبت إليهم أحقن الدماء، وأصل الرجاء، وأقطع البلاء . فانزلوني منازلهم، وردوا عليّ من أرضنا شطرا على ألا أجيش فيه جيشا، وألا أغلق أمامهم بابا من أبواب ديارنا، وألا أنصر عليهم أحدا، وألا أحجب عنهم سرا، وألا أعود إلى حربهم أبدا حتى يعودوا . فإن عادوا عدنا . وقد أعطيتهم العهد على ذلك . فخرج الأبقون من الأعراب يذموننا بما ليس فينا . وقد رأوا مارأوا من أمر إعراضنا وصدنا . لم نحق به حقا، ولم نستنقذ به أرضا . فوالله الذي لا إله إلا هو لو اقترب القوم مني شبرا لاقتربت منهم ذراعا، ولو جاءوني مشيا لأتيتهم هرولة . لا أبالي في صحبتهم لومة حاقد .

وسرت بين الجمع همهمة لم يبال بها الأمير . فمضى في خطبته حتى أتمها، ثم صلى بالناس إماما .

* * *

وصاح صائح العرب : "أليس فيكم رجل رشيد ؟" لكن الأمير جمع الكثير من الرجال، وزج بهم في سجونه . وكان فيهم قاضي القضاة، وشاه بندر التجار، وفارس، وغيرهم . بل وألحق بهم بعض النساء في سجن جعله لهن . فطفح الكيل . فوثب عليه بعض العسكر، فقتلوه .



وجاء الأعداء إلى جنازة صاحبهم، وسار فيها ساقطو الفرنجة، وحثالة الذين باعوا آخرتهم بدنياهم . فكانت ميتته عنوان حياته . وخرج الناس من السجون يتحدثون عن نهاية الخائن . ولكن الرواية لم تتم بموته قتيلا . فقد ذكره الفرنجة والعدو . فذمه كثير منهم بما ذمه به قومه . فالخائن لايكون إلا نعلا يرتديه الخصم إلى غرضه حتى إذا وصل به خلعه فى احتقار خاسر الدنيا والآخرة .

والذى يعرض نفسه للبيع لايجد مشتريا، بل مزدريا .

وهكذا كان آخر خدمة الفز .

رقم الإيداع	٧٨١٩ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	٩٧٧ - ١١ - ٠٥٠٥ - ٧